مأساة الأديب العربي ...

بقلم فاضل السباعي

يعاني الاديب ، والكتاب عامة ، في البلاد العربية من اعراض ازمة شديدة قاهرة تتجلى في ضيق عدد الجمهور ، القارىء لما ينشر باللغة العربية من كتب ادبية ليس يقبل عليها الا الخاصة من المثقفين رواد الاطلاع على النتاج الادبي الجيد ، الموضوع اصلا باللغة العربية ، او المنقول اليها عن اللغات الاجنبية .

وليس بدعا اذا قلنا : ان القارىء هو الذي يخلق الكاتب .

ذلك ان انتشار الجمهور القارىء وتزايد عدده ، يشجع الكاتب على التاليف والنشر معا ، لان هذا الجمهور لنتاجه بالمرصاد ، مقتنيا مطالعا، مما يندفع معه الكاتب الى اعادة الكرة ، مادام كتابه لم يتوسد رفا مهملا او يلق في بئر مهجورة ، بل رأى النور وطولع ، فانتقلت معه الرسالة ـ رسالة الادب والحياة ـ الى القراء ... ثم ـ وهذا اخر مايتمنى الكاتب في بلادنا ـ قد عاد عليه ادبه بشيء من الربح المادي .

بيد ان من الانصاف للحقيقة ان نقول ان الجمهور القارىء عندنا مقبل على القراءة غير مزور عنها ، ومشجع للكاتب بوجه عام .. ولكن ، اي ضرب من القراءة ذاك الذي يقبل عليه ؟ واية فئة من الكتاب تلك التي تتلقى منه التشجيع ؟!

والجواب لايحتاج الى مزيد من التفكير : الكتب والمجلات الرخيصة المثيرة هي التي تستأثر بقارئنا وتستبد باهتمامه ونهمه للقراءة ، تلك التي يحررها كتاب جناة على الفكر والادب بما يسطرون من « كلام » يستقطب « الجنس » دائما و « الحرمان » الذي يعانيه جمهورنا الكبير على امتداد رقعة ارضنا العربية !

هذه الفئة من الكتاب ـ ياللاسف ! ـ ناشطة ، مروج لنتاجها .. اما حملة الاقلام الشريفة ، الذين يحرصون على عفة الكلمة ونبل مقصدها ، فليس لهم الا الخلود الى الصمت يجترون احزانهم في قنوط موحش .

وهذا يفضي بنا الى اصول الازمة : هذا الاديب الذي يبدع ادبا مثريا للفكر مخصبا الحس والوجدان ، لقد غدا ذاوي الامال ... يتفرغ لوضع كتاب سنة او تزيد ، يحرق في لياليها الشموع ، مذيبا عصارة فكره وروحه ، ثم يحمل الكتاب ـ وليد الفكر المذاب والليالي الطويلة الساهرة ـ الى دور النشر واحدة اثر الاخرى ، في القاهرة وبيروت ودمشق .. فيقلب مديروها صفحات « المخطوط » ، ثم يلوون شفاههم ويعتذرون بأنهم مرتبطون مع ادباء اخرين بعقود طويلة الامد ، ذلك العذر التقليدي !

هذه القلة القليلة ـ في بلادنا ـ من القراء التي تقبل على مطالعة الادب الخالي من عناصر الاثارة ، هي في اللغات الغربية ذات عدد اكبر ، لان قراء اي منها اكثر عددا بطبيعة الحال ـ واعني الفرنسية والانكليزية بوجه خاص ـ ولان نسبة الخاصة بين قرائهم اعلى مما هي عليه عندنا . فاذا طرح كتاب ادبي في اسواق اوروبا ، باع في اسوأ حالاته مايفي بالتكاليف ، ان لم يغل للكاتب والناشر الارباح الطائلة .

وتبعا لذلك ، فان الاديب العربي مضطر لان يعمل عملا ما ـ سوى الادب ـ سعيا وراء كسب القوت مادامت « حرفة » الادب لاتطعم خبزا . وهو اذا عمل في وظيفة او محاماة او اية مهنة اخرى ، ضاق وقته دون الاطلاع وتثقيف فكره ، فاذا ثقافته ضحلة قريبة ، واذا نتاجه الادبي ـ على مر الايام ـ لايبلغ المستوى الرفيع المقدر .

ومن هنا ، كان ادبنا العربي الحديث دون المستوى العالمي .. والا ، من من المفكرين العرب نال جائزة نوبل مثلا ؟

فليس في وسع الاديب ، الموظف او العامل في مهنة حرة ، ان يبدع ادبا رفيعا حقيقا بالخلود . فانما الادب يقوم على اركانه الثلاثة : الموهبة والثقافة والممارسة جميعا ... فهل يدركها الاديب في مزدحم سعيه وراء كسب قوته اليومي ؟!

ولعل الموهبة تتجلى في القصة ـ وهي ما اود الحديث عنه ـ اكثر مما تتجلى في سائر الفنون الكتابية عدا الشعر .

والموهبة هنا موهبة « القص » ، قص الحوادث بمهارة ودقة ووعي. وانك لترى في حياتك العادية اناسا لايجيدون رواية حادثة وقعت لهم او نكتة سمعوها .. بينما تلقى اخرين بارعين في القص ، وكثيرا مايزوقون الرواية ويضفون عليها من روحهم و « موهبتهم » الفطرية ، حتى تأتي ساحرة اسرة تحبب اليهم المستمعين ، لذلك كانوا محبوبين مطلوبين للحديث في المجالس وليالي السمر .

وعلى الروائي ان يكون متحليا بموهبة القص ، التي تولد معه منذ يصرخ صرخته الاولى بين يدي القابلة السعيدة بولادة هذا الفاص على يديها ! فهذه الموهبة اصيلة في النفس ، لاتكتسب ، وان كانت المرانة تذكيها وتصقلها .

والمطلوب في الروائي موهبة القص كتابة ، لا موهبة القص حديثا يجري على اللسان . واحيانا لاتجتمع الموهبتان معا في واحد ، فقد يكون الروائي الموهوب في القص كتابة ، غير موهوب في قص الاحاديث على جلسائه .. ونسمي الاول « روائيا » ، والثاني « راوية » .

والثقافة هي الركن الثاني من اركان الادب الروائي . واعني الثقافة بمعناها الواسع : مطالعة الكتب ، والاهتمام بالحياة في جميع مجاليها . وليس احوج من الروائي الى معرفة طبيعة الاشياء وطبائع الناس فرادى وجماعات .

ومطالعة الكتب امر لاجدال فيه ، على الروائي ان يطالع ويطالع ويطالع ... ولما كانت الرواية محدثة في ادبنا العربي ليس لها في تاريخنا الادبي وجود فني متكامل ، فجدير بالروائي مطالعة الروائع العالمية ليلم بالتقاليد الفنية لهذا النوع من الادب الجديد وبالاسرار والخفايا التي تتفتح لبصيرة المطالع المتحري وتستغلق على سواه .

والموهبة والثقافة لايغنيان شيئا كبيرا ، اذا لم يعان الروائي « تجربة الكتابة » ، ان يمسك بالقلم محاولا رواية حادثة او سلسلة من الحوادث ولسوف تكون بواكيره مجرد « محاولات » تعوزها التجربة المصقولة على رغم توفر الموهبة والثقافة اللذين لايغنيان عن التجربة والممارسة .

وواهم ذاك الذي ظن في نفسه الموهبة ، فانكب على مطالعة الآثار الروائية ... فاذا قلنا له : تمرس بالكتابة وانت تطالع ، اجاب : لا اكتب حتى امتلىء .. وكثيرا ماتمضي بهؤلاء السنون ، حتى اذا احسوا بالامتلاء واشرعوا القلم للبدء في الكتابة ، خانهم التعبير عما امتلأت به اذهانهم من فكر ، فالقوا بالقلم جانبا ، وتملكهم خوف وتولتهم رهبة من الامساك به والتطلع اليه ، وذوت آمالهم الادبية وتلاشت بددا .

هؤلاء شباب مثقفون ثقافة روائية طيبة ، ولكن تعوزهم الممارسة وهي شيء ، لو يدركون ، عظيم .

فاذا كان الاديب العربي مشغولا بتحصيل لقمة العيش ، فكيف يتاح له ـ بعد الموهبة ـ التمكن من الثقافة والممارسة كلتيهما ؟

ان قراءته ـ مجرد قراءة ـ لعمل ادبي عالي قيم ، يعني ان يصاحبه لايام او اسابيع متفرغا دارسا . وكم من الاعمال الادبية الخالدة حقيق بالاديب الاطلاع عليها ودراستها . وليس يغرب عن البال ذلك الفارق بين قراءة القارىء العادي لاثر ادبي ما ، وبين قراءة الاديب المعني للاثر ذاته : يقرأ الاول للمتعة ، ويقرأ الثاني لدراسة الاثر واستجلاء جوهره واستشفاف اسراره الفنية ، وذا يتطلب جهدا ووقتا .

فمن اين يؤتاه الفراغ الكافي ؟!

واذا كانت المطالعة تشغل من الوقت كثيرا ، فما الظن بما تنتهب الكتابة نفسها من وقت ، ومن جهد ، ومن معاناة ؟!

اذن ، فالمطالعة والكتابة يستنفدان العمر ، والجري وراء اللقمة يستنفد العمر ايضا ... فهل كتب على الاديب العربي ان يدور في دوامة من التمزق والضياع ؟ فلا هو يصيب اللقمة السائغة ، ولا هو بالغ من الادب مايبغي من رفعة وسمو !

اني كلما فرغت من عمل ادبي صغير وضعته ، تجسد لي ضعفه وتهافته وهممت بان ألقمه النار تشفيا .. « أهذا ادب يستحق الخلود ؟! » ، « أحدث نفسي : « أترقى هذه القصة الى بعض ما بلغ تشيخوف العظيم ؟! فلماذا اكتب ما ليس جديرا بالخلود ؟! » »

فاذا طالعت عملا روائيا خالدا ، « مدام بوفاري » مثلا ، تكشفت لبصيرتي فيه اسراره الفنية وانفسحت امامي آفاق لاتحد .. « فأين انا من هذا الروائي القمة ؟! » .

آه من الادب ! آه من « الجملة » المدروسة النازلة منازلها نزول العين في محجرها ، او نزول الماسة موضعها بين شعيرات الذهب ! آه من الكلمة الصغيرة ، من الحرف الدقيق !

كان يمضي على فلوبير ، وهو يكتب احدى رواياته ، ايام وايام دون ان يتم فصلا واحدا من خمس صفحات . كان يطيل الوقوف عند الكلمتين يريد ان ينطقهما احد شخوص روايته . وعندما يفرغ من وضع فقرة صغيرة بعد الجهد ، يخرج الى شرفة بيته ليتلوها بصوت عال حتى يتأكد من ان نشازا لايشوبها .

ذلك هو الادب الخالد : معاناة وسهر وجلد ومصابرة ...

واننا لو أمعنا النظر فيما يؤديه الروائي الناجح لمجتمعه وامته من خدمة ، لعرفنا انها خدمة جلى يؤديها دون ما مقابل ولوجه الله والوطنية .. ومن وجوه هذه الخدمة ـ فضلا عن تهذيب افراد الشعب بالاخذ بيدهم الى الحياة الافضل مرورا في طرق الحق والخير والجمال ـ نشر الثقافة وتعريف قراء العالم ـ والقراء هم الصفوة من كل امة ـ على معالم الحياة في مجتمعه ، ومتى عرف القارىء شيئا احبه ، والانسان عدو لما جهل .

ومن اجل ذلك تتهافت امريكا وروسيا كلتاهما على نشر روائع روائييهما في لغتنا العربية ، متكبدتين شيئا من مشقة ومزيدا من المال ، طمعا في هذا « التجاوب » ، هذا الذي يبدو لاول وهلة شيئا يسيرا ، ولكنه مع الاستقصاء ابعد ماتنشده امم العالم من مكاسب ادبية ومعنوية .

انه لو كان الاديب في بلادنا يجني من ادبه ربحا ، لكان له ان يكتفي بأرباح ادبه . اما وان الادب عندنا لايغل سوى الربح الذي لايتناسب بحال مع جزء مما يبذل صاحبه من جهد وعناء ، فقد بات حقيقا بالحكومات العربية ان تسبغ على الاديب رعايتها وتشمله بعطفها ، وأقله ان تجري له مرتبا اسوة بموظفيها ، وليس بكثير ان هي ذهبت الى تقديم الجوائز التشجيعية والتقديرية له اعترافا .

لقد فطن الى ذلك الخلفاء والامراء عبر تاريخنا العربي المجيد ، فخلعوا على الشعراء والكتاب والمفكرين الخلع ، وقدموا لهم المنح والعطايا تشجيعا وتقديرا ..

وليس هذا المطلب بدعا .

نعم ، كانت تحدو بهم غايات خاصة ، هي ان يخلد الشاعر المادح الامير الممدوح في خريدة عصماء . ولكن هذا الامير الممدوح كان يسدي ، على كل حال ، الى المادح يدا بيضاء ، يوري شاعريته ويقدح زنادها ، فاذا طاقته الكامنة تنطلق نورا مشعا وهاجا .

ترى ، لولا تشجيع سيف الدولة لشاعر بلاطه ، أكان في ادب العربية المتنبي ؟

وتقوم مصر اليوم لتأخذ بيد الفنانين والكتاب ، فتضع « نظام التفرغ » لتمنح بموجبه الفنان او الكاتب « منحة » (اشبه بالمرتب) لسنة او اكثر مقابل تفرغه للانتاج بعيدا عن زحمة السعي وراء الرغيف .

وقامت ضد التفرغ عاصفة .

قالوا : في التفرغ انعزال للاديب عن مجتمعه ، وبالتالي انعدام المشاركة الوجدانية مابين الكاتب وبين ابناء مجتمعه الذين يعانون مشكلات ينشدون الحلول لها ، وتؤرقهم قضايا يرجون التعبير عنها .

وقد اخطأوا عندما ظنوا في التفرغ انعزالا .

لقد انقادوا الى ظن توجزه هذه الجملة البسيطة : تفرغ الاديب اي اعتزل الناس واعتكف في بيته يزاول الكتابة !! وانه لظن ساذج فأي اديب يعتكف في بيته كاتبا ساعات النهار والليل دون ان يقابل الناس ؟ فاذا صح ذلك ، فانما يصح لايام ، او لفترة من الزمن ، ريثما يفرغ الكاتب من وضع عمل ادبي متكامل يستوجب الانكباب ، كما فعل فيكتور هيغو في كتابته لرواية « البؤساء » في منفاه في جزيرة جرنسي اخريات ايامه .. ومتى فرغ ، عاد سيرته الاولى من اختلاط بالناس ، والانسان اجتماعي بطبعه ، والاديب اوضح انسانية من سواه.

وايا ما كان ، فان هذا الانكباب والاستغراق ، فترة وضع العمل الادبي ، هما ما ننشد من راء التفرغ ، وهما عين ما يتطلبه المخاض الفني لوضع الاثر سليما معافى ، لا يشوبه التفكك والوهن ، ولا تجرحه متطلبات الحياة اليومية .

ان الاصح ان يقال : ان الاديب في تفرغه ، وفي غير تفرغه ايضا ، لا يميل الى تضييع اوقاته على ارصفة المقاهي ، او هدر ساعات يومه في غير الاجتماعات المجدية والجلسات النافعة بصحبة كتاب سمير ، او صديق ذكي الفؤاد .

ان في التفرغ تقديرا للادب وردا لاعتبار الادباء . والاديب المتفرغ يشعر باحترام الدولة لمواهبه وجهوده . ومع التفرغ يتاح له « تثقيف » عقله على نحو موصول منظم . ومع التفرغ يتسنى لـه ان « يمارس » الكتابة على هواه ، وهو مطمئن الى المرتب يقبضه ، فيدفع للبقـــال والقصاب والخباز ويفي بنفقات تعليم الصغار في المدارس .

وكما يكون تثقيف العقل بالمطالعة والمعاشرة ، كما اسلفنا ، يكون على نطاق ما بالترحل في البلاد ، وبتنمية المكتسبات الفكرية بالاحتـــكاك بالشعوب ، والتعرف على تقاليدهم ، ومشاهدة طرز حياتهم ، ودراسة احوالهم بوجه عام .. ولعل التفرغ ان يتيح الفرصة للمتفرغين بالسفر مع معونة الدولة لهم عى ذلك .

وقل من الروائيين الغربيين النابهين من لم يطف بالبلاد طولا . وقد زار عدد من الروائيين المحدثين اوروبا وامريكا وبعض بلاد الشـرق ، فاكتسبوا المعارف وأثروا وجداناتهم بالتجارب القصصية التي واتاهـم حسن التعبير عنها فيما بعـــد .

لقد خرج من بلاده مكسيم غـوركي الـروسي ، وجيمس جـــويس الايرلندي ، وغوستاف فلوبير الفرنسي ، وجوهان غوتيه الالماني ، وعاشت بيرل بيك الامريكية في الشرق الاقصى طويـــلا .. امـــا الماردان : سمرست موم الانكليزي وارنست همنغواي الامريكي ، فقد اتيح لكـل منهما – يا للسعادة ! – ان يعمل في مؤسسة توجب طبيعة العمل فيـها التنقل في بلاد الله ، فجاب البلاد والامصار ، ليعتكف بين الفتـــرة والاخرى فيبدع اثرا روائيا على المستوى العالمي . وهل ننسى لهمنغواي « الشيخ والبحر » الصياد الكوبي ، و « وداع للسلاح » الدائرة حول الحرب في ايطاليا ، و « لمن تدق الاجراس » حول الحرب في اسبانيا ؟

ولقد أتيح لبعض الكتاب العرب المعاصرين زيارة بعض الاقطار .

ولكن أليس من الغريب الا يتاح ، بعد ، لنجيب محفوظ ، الروائي العربي الاول ، ان يخرج حتى اليوم من حدود مصر ، وقد كاد يبـلغ الخمسين من العمر ؟ ولو كان قد جاب بعض الاقطار ، اذن لاتسم ادبـه بالشمول والعالمية ، ولجاءت « شعبية » قصصه على مستوى اخـــر ولاتضحت السمات الانسانية اكثر في رواياته ، ولكان جديرا بأن يترجم الى اللغات الحية ، فينكب على مطالعته القاريء الغربي واجدا لديه المتعة ذاتها التي وجدها القاريء العربي .

ومع التفرغ تزداد عناية الاديب بما يكتب .

وما اشرفه قلم الاديب الذي يهـذب نفثاته ، فلا يخرج على النـاس بكلمته المطبوعة الا بعد العناية والمصابرة والمعاناة ! ومسكين ذلك الكاتب الذي يكتب مستعجلا ، وهو يشرب قهوة الصباح ، فصلا جديدا فـي روايته التي « يقبل عليها الجمهور » ليقدمه مساء الى المطبعة ، فيكـــون بين ايدي القراء في صحيفة الصباح التالي !

فلوبير الذي كتب « مدام بوفاري » في اربع سنوات ونصف السنة ، وتولستوي الذي نسخ روايته المطولة « الحرب والسلم » (الرواية في الف وخمسمئة صفحة) سبع مرات قبل ان يدفعها الى المطبعة ، هذان اديبان خالدان على الدهر ، لانهما خلعا على الكلمة ازار العفة والشرف ... اما « كتاب الصباح » ، فقد خلعوا عن الكلمة ازار العفـة والشرف وهتكوا حرمتها ، واضيعة الكلمة !

ان من حق المتفرغ ان يتاح له المخاض – مخاضه في الكلمة – بهدوء ويسر بعيـدا عن الجلبة ، ليسكب فيها – في الكلمة – روحـه وفكره وذاته جميعا ، وليتخير ، قبل ذلك ، موضوعه تخيرا رشيدا واعيا ويدرسه ويوفيه حقه ، فيلد اذاك الاثر وفي طياته « بذرة » الخلود ...

فاذا وجد ان هذه « البذرة » تعوزه ، فليكن قاسيا مع نفسه ، وليحكم على الاثر بالموت فيئده قبل ان يرى النور ، متطلعا الى وضـع اثـر جديد في احشائه هذه البذرة السحرية .

ان رواية عنوانها « غواية القديس انطوان » كان من المفترض ان تكون بين ايدي قراء العالم اليوم ، ليقولوا فيها : لقد اسف فلوبير في هذه الرواية .. ولكن فلوبير فوت عليهم الفرصة عندما وأدها وما ابقى لنا منها سوى الاسم !

فاذا تطلعنا الى رواياتنا العربية المعاصرة ، لم نجد فيها المعاناة الصادقة ، ولوجدنا ان لكل كاتب مجيد ، رواية ضعيفة تناظر اختها الجيدة وتقف لها بالمرصاد وكأنها تقول متشفية : « ان انت رفعت مـن شأن كاتبنا ، فاني كفيلة بأن اشده الى ادنى »

و « عودة الروح » ، احلى ما كتب توفيق الحكيم من قصص ، ملآنةحشوا يحط من تقنيتها الفنية . اما « سارة » العقاد فمن الخطل ان نسميها رواية لعدم توفر عناصر الرواية الاساسية فيـها . وينسحب طه حسين من تلقاء نفسه عندما يعلن ان ما يكتب على شاكلة القصص لا يسميه هو قصصا وان سماه بعض الناس كذلك . وتيمور ، الذي نهضت القصة والرواية العربيتان على كاهلية اكثر مما نهضت عـلى كواهل سواه ، لا نعدم في نتاجه الغزير الفتور الروائي في كـثير من الاحيـــان ..

وبقي في الحلبة محفوظ ، وهو الذي تتلمذ على الادباء الشـيوخ الذين ذكرنا فضلا عن الروائيين الغربيين ، فكان من الطبعي ، مـع موهبته ، ان يقفز الى الامام متخذا مما وضع في العربية منطلقا له ، فسار بالرواية العربية اشواطا .. ولكن لبس الى المستوى العالميبعد.

ان في التفرغ ما يعطي الفرص الذهبية للموهوبين الاصلاء لممارسـة مواهبهم على احسن وجه . ولئن كان في ادباء العربية اليوم واحد من قبيل محفوظ لاولى ان يكون بينهم مع التفرغ عشرات من مســتواه ، او اكثر نضجا واوسع افقا واقل عثارا ، كل على طريقته .. اذاك يتاح لادبنا العربي ان يكون رفيعا ، عالمي المستوى ، مقروءا مـن مختـــلف الامم ، حاملا اليهم رسالتنا الاجتماعية والقومية والانسانية ، ومن هناك يثبت ادبنا وجوده في المحافل الادبية الدولية ممثلا امتنا خير تمثيل .

حلب — **فاضل السباعي**

صدر حديثا

ربيع الامل

مجموعة قصص

بقلم خضر نبوه